السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(٧)

أَمَانَةٌ فِي عُنُقِكِ!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

أَنَا ابْنُ سِتِّ سِنِيْنَ

وَفِي طَرِيْقِ العَوْدَةِ إلىٰ مَكَّةَ ، تَذَكَّرَ الغُلامُ مَاذَا حَدَثَ ، فَسَأَلَ أُمَّ أَيْمَنَ قائلاً : لَقَدْ مَاتَ وَالدي وَلَمْ أَعْرِفْهُ ، وَدُفِنَ في يَثْرِبَ ، ثُمَّ جَاءَتْ بِي وَالدَتي لِزِيَارَةِ قَبْرِهِ ، وَلَمَّا عُدْنا مَاتَتْ هِيَ ، وَأَنَا ابْنُ سِتِّ سَنَواتٍ ، فَمَنْ بقي لِي مِنْ بَعْدِهِمَا ؟!

وَتَرْفَعُ أُمُّ أَيْمَنَ بَصَرَهَا إلىٰ وَجْهِ الغُلامِ ، فَتَرىٰ دُمُوْعَهُ تَسِيْلُ علىٰ خَدَّيْهِ ، فَتَحْنُو عَلَيْهِ ، وَتَمْسَحُ الدُّمُوعَ بِيَدَيْهَا ، وَتَقُولُ : إِذَا كَانَ أَبُوكَ قَدْ مَاتَ ؛ فَإِنَّ لَكَ عِوَضاً عَنْهُ بِجَدِّكَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَإِذا كَانَتْ أُمُّكَ قَدْ مَاتَتْ ؛ فَأَنَا سَأَرْعَاكَ كَمَا كَانَتْ تَرْعَاك .

وَرَاحَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تَحْكِي لَهُ حِكَايَةَ ما حَدَثَ لِجَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا جَاءَ جَيْشُ أَبْرَهَةَ الحَبَشِيِّ ، وَأَرَادَ تَهْدِيمَ الكَعْبَةِ .

وَحَكَتَ لَهُ حَكَايَاتٍ كَثِيْرَةً تَتَعَلَّقُ بِمَوْقِعِ جَدِّهِ بَيْنَ زُعَماءِ قُرَيشٍ...

* * *

أَنَا كَفِيْلُ حَفِيْدِي مُحَمَّدٍ ﷺ

وَلَمَّا شَارَفَ الغُلامُ مَعَ الجَارِيَةِ عَلَىٰ البَيْتِ الحَرَامِ ، وَبَدَتْ بُيُوتَاتِ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ ؛ قَالَتْ أُمُّ أَيْمَنَ لَهُ : أَتُرِيْدُ أَنْ تَذْهَبَ إِلىٰ بَيْتِ وَالِدِكَ أَمْ إِلىٰ بَيْتِ جَدِّكَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ؟

فَقَالَ : بَلْ إِلىٰ البَيْتِ الحَرَامِ ، فَهُنَاكَ سَنَجِدُ

زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ ، وعلىٰ رَأْسِهِمْ جَدِّي عَبْدُ المُطَّلِبِ .

وانْطَلَقَا إِلىٰ البَيْتِ الحَرَامِ ، وَهُنَاكَ التَقَيَا بِعَبْدِ المُطَّلِبِ ، فَمَا كَانَ منه إلا أَنْ ضَمَّ الحَفِيْدَ إِلىٰ صَدْرِهِ ، وَرَاحَ يَشُمُّهُ ، وَيُقَبِّلُهُ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلىٰ صَنَادِيد قُرَيْشٍ ، وَقَالَ لَهُمْ : اشْهَدُوا أَنِّي كَفِيْلُ هَذَا الغُلَامِ .

وَشَاءَ الله سُبْحَانَهُ أَنْ يُفِيْضَ حُبَّ الغُلام في قَلْبِ عَبْدِ المُطَّلِب ، حتَّىٰ يَزِيدَ علىٰ حبِّهِ لأَوْلاَدِهِ!

* * *

دَعُوا ابْنِي هَذَا!!

وَمُنْذُ ذَلِكَ الحِيْنِ مَا رُئِيَ عَبْدُ المُطَّلِبِ في مكانٍ إلا وَمَعَهُ حَفِيْدُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَكَانَ يَصْحَبُهُ إلىٰ الأسْوَاقِ ، وَكَانَ يُعَرِّفُهُ علىٰ زُعَمَاءِ مَكَّةَ ، وَسَادَاتِهَا ، وَكَانَ يُعَلِّمُهُ الأَدَبَ ، وَالأَخْلاقَ والسُّلُوكَ .

بَلْ وَكَانَ يُوْضَعُ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ فِرَاشٌ في ظِلِّ الكَعْبَةِ ، فَكَانَ بَنُوْهُ يَجْلِسُونَ حَوْلَ فِرَاشِهِ ذَلِكَ حتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْهِ ، لا يَجْلِسُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ بَنِيْهِ إجْلالاً لَهُ .

قال : فكان حَفِيْدُه يَأتِي وَهُوَ مَا زَالَ صَغِيراً ،

حتَّىٰ يَجْلِسَ عَلَيْهِ ، فَيَأْخُذَهُ أَعْمَامُهُ لِيُؤَخِّروه عَنْهُ ، فَيَقُولُ عَبْدُ المُطَّلِبِ إِذَا رَأىٰ ذَلِكَ مِنْهُمْ : دَعُوا ابْنِي هَذَا ، فَوَاللهِ إِنَّ لَهُ لَشَأناً ، ثُمَّ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَيْهِ ، وَيَمْسَحُ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ .

* * *

لاَ أَبْعَثُكَ فِي حَاجَةٍ أَبَداً

وَذَاتَ مَرَّةٍ أَرْسَلَ عَبْدُ المُطَّلِبِ حَفِيْدَهُ لِلْبَحْثِ عَنْ نَاقَةٍ قَدْ شَرَدَتْ مِنَ الرَّاعي ، فَطَالَتْ غَيْبَةُ الغُلامِ عَنْ جَدِّهِ .

وراح عبد المطلب يَبْحَثُ عن الغُلامِ ، حَتَّىٰ إِذَا أَعْيَاهُ التَّعَبُ ؛ جَلَسَ إِلىٰ جِوَارِ الْكَعْبَةِ وَرَاحَ يَدْعُو الله قَائِلاً :

رَبِّ رُدَّ إِلـــيَّ رَاكِبـــي مُحَمَّـــدا

رُدَّهُ إِلَيَّ وَاصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

وَبَعْدَ قَلِيْلٍ جَاءَ الغُلامُ إِلَىٰ البَيْتِ الحَرَامِ ، وَلَمَّا دَخَلَ قَامَ جَدُّهُ مُسْرِعَاً ، وَقَبَّلَهُ وَهُوَ يَقُولُ :

يَا بُنَيَّ لَقَدْ جَزِعْتُ عَلَيْكَ جَزَعاً لَمْ أَجْزَعْهُ عَلىٰ شيءٍ قطُّ .

وَاللهِ لا أَبْعَثُكَ في حاجَةٍ أَبَدَاً ، وَلا تُفَارِقُنِي بَعْدَ هَذَا أَبَدَاً .

لَـٰكِنْ يَا أَحِبَّتي البَرَاعِمَ : هَلْ تَسِيْرُ الحَيَاةُ كَمَا يُريد الإنْسَانُ ، أَمْ أَنَّ المرضَ ، وَالمَوْتَ ، وَمَا إِلىٰ هُنَالِكَ تنقض الحياة ؟!

* * *

لَقَدْ مَاتَ عَبْدُ المُطَّلِبِ

وَتَدُورُ الأَيَّامُ ، وَيَزْدَادُ تَعَلُّقُ عَبْدُ المُطَّلِبِ بِحَفِيْدِهِ ، وَيَزْدَادُ تَعلُّقُ الغُلامِ بِجدِّهِ ، لَـٰكِنْ مَا فَائِدَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ أَمَامَ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ ؟!

ولَمَّا بَلَغَ الغُلامُ الثَّامِنَةَ مِنَ العُمُرِ ؛ مَاتَ الرَّجُل العَطُوفُ ، والحَنُونُ ، مَاتَ الَّذي كَفِلَهُ ، وَرَعَاهُ ، مَاتَ عَبْدُ المُطَّلِبِ .

وَبَكَىٰ أَهْلُ مَكَّةَ السَّيِّدَ الكَبِيْرَ ، لَـٰكِنَّ الحَفِيْدَ كَانَ أَكْثَرَهُمْ بُكاءً عَلَيْهِ .

وَحَـاوَلَ الغُـلامُ أَنْ يَنْسَـىٰ ، أَوْ يتنـاسَـىٰ المُصِيْبَةَ ، لَـٰكِنْ دُوْنَ جَدْوَىٰ .

آهٍ مَا أَصْعَبَ فِراقِ الأحبَّة يَا مُحَمَّدُ..!! لَقَدْ مَاتَ وَالِدُكَ ، ثُمَّ مَاتَتْ وَالِدَتُكَ ، ثُمَّ هَا هُوَ جَدُّكَ قَدْ مَاتَ ، فَمَنْ بَقِيَ لَكَ مُعِيْناً ، وَنَاصِراً ، وَرَاعِياً ، وكَفِيْلاً ؟!

وَبَعْدَ دَفْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَانْتِهاءِ مَراسِمِ التَّعْزِيَةِ ؛ قَامَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، وَقَالَ : أَيُّها النَّاسُ! لَقَدْ أَوْصَانِي وَالِدِيْ وَصِيَّةً .

* * *

إِنَّهُ أَمَانَةٌ في عُنُقِكَ

وَرَاحَ أَبُو طَالبٍ يتحَدَّثُ عَنْ وصِيَّةِ وَالِدِهِ لَهُ قَائِلاً :

لَقَدْ نَظَرَ في أَوْلادِهِ التِّسْعَةِ ، ثُمَّ طَلَبَ مِنِّي القِيَامَ ، فَوَقَفْتُ ، ثُمَّ خَاطَبَنِي قَائِلاً : يَا وَلَدِي! هَا أَنَذَا كَمَا تَرَى قَدْ دَنَا أَجَلِي ، وَاقْتَرَبَتْ نِهَايَتِي ، وَلِيْ عِنْدَكَ طَلَبٌ هَامٌّ ، لا أَرَاكَ تَبْخَلُ عَلَيَّ في تنفيذه .

فَقُلْتُ : يَا وَالِدِي! أَنَا رَهْنُ أَمْرِكَ ، أَمدَّ الله لَنَا في عُمُرِكَ ، وَرَزَقَكَ الصِّحَّةَ وَالعَافِيَةَ ، فَمُرْنِي بِمَا تَشَاء .

فَهَزَّ أبِي رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ : لَيْسَ لِيْ مِنْ أَمَانَةٍ في عُنُقِكَ إلا ابنُ أَخِيْكَ ، هَذَا الغُلامُ اليَتِيْمُ ، فَأَحْسِنْ رِعَايَتَهُ ، واضْمُمْهُ إلى أُسْرَتِكَ ، واجْعَلْهُ في كَفَالَتِكَ ، أَعَانَكَ اللهُ... .

* * *

فِي كَفَالَةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ

وَمُنْذُ ذَلِكَ الحِيْنِ ضَمَّ أَبُو طَالِبٍ ابْنَ أَخِيهِ إلى أَوْلادِهِ .

لَـٰكِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ رَجُلاً فَقِيْراً كثِيْرَ العِيَالِ ، فَهَلْ حَالَ ذَلِكَ دُوْنَ أَنْ يَقُومَ أَبُو طَالِبٍ بِحَقِّ الكَفَالَةِ ؟!

أَبَداً ، فَنَخْوَتُهُ ، وَمُرُوءَتُهُ ، وَأَخلاقُهُ جَعَلَتْهُ يُفَضِّلُ ابْنَ أَخِيْهِ عَلَىٰ أَوْلادِهِ ، فَقَدْ كَانَ يُحِبُّهُ حُبّاً شَدِيْداً ، وَيَرْعَاهُ وَيُحَافِظُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ لا يَنَامُ إلا إلَىٰ جَنْبِهِ ، وكَانَ يُخرِجُهُ مَعَهُ إِذَا خَرَجَ ، وَيُطْعِمُهُ قَبْلَ أَنْ يُطْعِمَ أَوْلادَهُ .

وَالَّذِي زَادَ في تَعَلُّقِ أَبي طَالِبٍ بِهِ أَنَّهُ كَثِيْراً مَا كَانَ يَرَىٰ بأُمِّ عَيْنَيْهِ أَدِلَّةً وَاضِحَةً علىٰ أَنَّ ذلكَ الغُلامَ لَهُ خُصُوصِيَّةٌ ، فَهُو غُلامٌ مُبَارِكٌ حَقّاً .

* * *

عِفَّةٌ لاَ مَثِيْلَ لَهَا

لَـٰكِنْ مُقَابِلَ تِلْكَ الرِّعَايَةِ الْكَرِيْمَةِ ، وَذَاكَ الحَنَانِ الْكَبِيْرِ مِنْ قِبَلِ أَبي طَالِبٍ لابْنِ أَخِيْهِ ﷺ ، مُقَابِلَ تِلْكَ الرِّعَايَةِ نَجِدُ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ كَانَ ذَا نَفْسٍ عَالِيَةٍ ، فَهُوَ يَافِعٌ عَفِيْفٌ ، وَهُوَ يُدْرِكُ مَدَىٰ مَا يُعَانِيْهِ عَمُّهُ مِنْ شَظَفِ العَيْش ، وَكَثْرةِ العِيَالِ ؛ لِذَلِكَ رَاحَ يَرْعىٰ الغَنَم ، وَيَأْتِي بِالأَجْرِ فَيُعْطِيْهِ عَمَّهُ ، وَذَلِكَ بِهَدَفِ ألا يَكُونَ عَالَةً عَلَىٰ أَحَدٍ .

أَجَلْ! أَيُّهَا الأَحْبَابُ البَرَاعِمُ ، عَلَىٰ مِثْلِ تِلْكَ الأَخْلاقِ يَجِبُ أن يَتَرَبَّىٰ الصِّغَارُ ، وَيَسيْرَ الكِبَارُ ، عَسَىٰ أَنْ تَكُوْنَ قَدْوَتُنَا في الحَيَاةِ هِي سِيْرَةَ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ ، مِصْداقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وَآخِرُ دَعْوانا أنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين

* * *

(١) سورة التوبة : ١٠٥ .